صفقة العار

وثائقي يسخّر الشوها لشرعنة الكيان الغاصب

من وثائقي «النكبة»

المحطة السعودية تجاوزت حدود الحياء

«نكبة» منحولة تعزّز سرديّة القاتل

يوم الأحد الماضي، عرضت الشبكة السعودية الجزء الأول من وثائقي «النكبة» (إنتاج: Arte، و Roche Productions) لكل من ويليام كاريل وبلانش فنغر. روّجت القناة بأنّ الشريط (48 دقيقة) يحكي «إعادة صياغة قصة ولادة إسرائيل كما يراها العرب والإسرائيليون» من خلال «نصّ خالٍ من الأيديولوجيا أو التحزّب». إنّه عصر «إسرائيل» على المنصات السعودية، يعلن دفن القضية الفلسطينية إلى الأبد.

زينب حاوي

يمكن بكل سهولة، توثيق يوم الأحد الماضي، كبداية مرحلة جديدة وعلنية في تاريخ «الصراع العربي - الإسرائيلي» بعد سنوات من الجهد السعودي الحثيث على تثبيت فكرة أن «إسرائيل»، باتت خارج معادلة الاحتلال والعداء. عمل دؤوب شهدناه في السنوات الأخيرة الماضية، بلغ أوجه إبان الأزمة السورية، وسط تحركات سياسية وديبلوماسية نحو السير بمنطق التطبيع مع «إسرائيل»، على صعد كثيرة رياضية كانت أم ثقافية وغيرها، والتبرير بوقاحة لهذا الأمر. السعودية التي تمثل رأس حربة في هذه «الإستراتيجية»، بات إعلامها الذراع الأولى في هذه العملية. وآخر الأمثلة على ذلك ما عنونه هذا الإعلام على خلفية القصف الصهيوني لمطار «تيفور» السوري، إذ أورد أنه خلّف «قتلى إيرانيين» متجاهلاً كلياً أنّ هناك عدواناً صهيونياً على أرض عربية!

الأوراق باتت بهذا القدر مكشوفة، الى حدّ تبني قناة «العربية» السعودية الرواية الصهيونية لنشأة «دولة إسرائيل». يوم الأحد الماضي، عرضت الشبكة السعودية الجزء الأول من وثائقي «النكبة» (إنتاج: Arte، و Roche Productions) لكل من ويليام كاريل وبلانش فنغر. روّجت القناة بأنّ الشريط (48 دقيقة)، يحكي «إعادة صياغة قصة ولادة إسرائيل كما يراها العرب والإسرائيليون» من خلال «نصّ خال من الأيديولوجيا أو التحزّب». يمتدّ الجزء الأول على الفترة التي تراوح بين عاميّ 1879 و 1948، لدى تاريخ إعلان «استقلال إسرائيل». اعتقدت الشبكة السعودية، أن بإمكانها عرض هذه المادة التوثيقية الخطرة والمسمومة، من خلال القول بأن ما يشفع لها هو تدعيمها بصور أرشيفية «اكتُشفت حديثاً»، رغم أن لا مناسبة فعلية لتسويغ عرضها إذا ما وضعنا جانباً مضمون الشريط.

يستضيف «النكبة» مجموعة مؤرخين إسرائيليين، وأكاديميين فلسطينيين. ومن خلال شهادات العرب تحديداً، ولّف المخرجان الرواية الصهيونية، أو أهملا ما قالوه وهمّشاه، لا سيما في المقطع الأخير لدى تناول مرحلة تأسيس «الدولة اليهودية» في فلسطين. خلطة تراوح بين هذه الشهادات، وصور وفيديوات أرشيفية، رافقت المرحلة المنوي الإضاءة عليها. طاف مسار الوثائقي الذي حمل منطقاً صهيونياً يصوّر اليهود المضطهدين في أوروبا من قبل النازية، ولاحقاً من قبل البريطانيين في فلسطين، ثم مواجهتهم ظروفاً صعبة، مع «بدء العرب الحرب (1948) عليهم»، ثم خسارتها. الانحياز الواضح للصهاينة في الشريط، لا يحتاج الى دلائل ملموسة في السرد. على سبيل المثال، يستخدم الشريط لدى سرده أحداث 1929، عبارة «سرت شائعات حول هجوم يهودي على المسجد الأقصى» مقابل استخدامه لهذا السياق في الخبر عينه «هجمات العرب على اليهود».

في الجزءين الأول والثاني من «النكبة»، كنا نحن أمام سردية فاضحة حول «مظلومية» اليهود، وتهديد حيواتهم في أوروبا، وغياب «الخيارات البديلة» للعيش هناك. فزعيم النازية أدولف هتلر فرض مقاطعة للشركات اليهودية (1933)، وسمح بهجرة اليهود إلى فسطين مقابل تخليهم عن ممتلكاتهم، وسط إقفال أبواب أوروبا أمامهم، وانعدام سبل إيجاد «وطن» لهم، وقد أضحى عدد «ضحاياهم حوالى الثلث حول العالم من قتلى إما بالغاز أو داخل المعسكرات النازية». هؤلاء «المهاجرون» بحسب الشريط، والمغتصبون واقعاً لأرض فلسطين، لم يأت الوثائقي على ذكر، ولو تلميحاً، أنهم قاموا بمجازر مرعبة وتنكيل جماعي بالفلسطينيين، بل أخذ يصورهم على أنهم مجموعة من النخبة فيهم «العلماء والمهندسون».

> يبدأ الجزء الثاني بفتح الأبواب أمام اليهود للمجيء إلى فلسطين، وصورهم «عائدين» فرحين!

وسط التهليل والفرح العائم الذي يفتتح به الجزء الثاني من «النكبة» لدى فتح الأبواب أمام اليهود للمجيء إلى فلسطين، وصورهم «عائدين» فرحين، يستوقفنا كلام المعلّق الذي يعلن «ولدت دولة إسرائيل... أصبح الحلم حقيقة». عبارة تختصر مساراً عربياً سعودياً يُنتظر إعلانه في القريب العاجل. لم يتوقف الشريط عند مجيء اليهود الى فلسطين، بل راح يكرر سردية «معاناة» الصهاينة في تأمين موارد لهم، وسط الأعداد الكبيرة التي «وفدت» الى فلسطين. يسرد هذه المرحلة التي «اضطر» فيها هؤلاء للعمل في الزراعة بشكل جماعي، وينتهي بدفن تيودور هرتزل في القدس كما أوصى، بعد تحقيق «حلم الدولة اليهودية» (1949). لعلها مفارقة بأن ينتهي الجزء الأول بصوت الشاعر الراحل محمود درويش، ملقياً قصيدة «على هذه الأرض ما يستحق الحياة» التي تنتهي بـ «كانت تسمى فلسطين. صارتْ تسمى فلسطين». ويبدو أنه بفضل آل سعود، ستنتهي سيرة فلسطين إلى الأبد، و يدشّن عصر «إسرائيل» على المنصات السعودية، إيذاناً بدفن القضية الفلسطينية إلى الأبد.

«العربية» باعت فلسطين

تأخذ السرديّة الصهيونية الرسميّة مكانة الحجر الأساس للمشروع الإستيطاني العبري المزروع في خاصرة المشرق الفلسطينية. رغم أن المؤرخين الإسرائيليين أنفسهم وعديداً من المؤرخين عبر العالم، فنّدوا أجزاء أساسيّة من تلك السرديّة، إلا أنّ «العربيّة» تتجرأ على عرض وثائقي فرنسي - صهيوني يحكي تلك السرديّة المنحازة

«البرادايم» الصهيوني وكيّ الوعي العربي

سعيد محمد

قليلة هي الدول في النظام السياسي العالمي المعاصر التي لا تزال مسألة شرعيّة وجودها موضوع أخذ ورد، لكن أبرزها على الإطلاق هي «دولة إسرائيل»: ذلك الكيان الإستيطاني الغربي المزروع جنوبي سوريا غربي نهر الأردن - فلسطين. هذه المنظومة السياسية الهجينة التي احتفلت منذ بعض الوقت بمرور سبعين عاماً على إعلان قيامها رسمياً، لا تُعرف لها حدود نهائيّة، وتعاني مآزق وجودية هائلة بشأن هويتها القوميّة وطبيعة نشأتها. أما على الصعيد الاستراتيجي، فهي تبدو - مع تطور أنظمة النقل والصواريخ العابرة للقارات، ومتانة الهيمنة الأميركيّة على ممالك الخليج العربيّة، ولا سيّما السعوديّة - كأنها مجرد رأس جسر ملغّم بأسلحة نووية تبقيه الإمبراطوريّة الأميركيّة حيّاً خدمة لنزوات ايديولوجيّة محض أكثر منها لأسباب عملياتيّة.

منذ وقت مبكر، اعتنت الوكالة اليهوديّة - وهي الإدارة الصهيونيّة التي أوكلت إليها مسألة إنشاء تلك الدولة الملتبسة - بفرض هيمنة حديديّة على السرديّة التاريخيّة للمشروع الإستيطاني منذ بداياته الأولى في 1882. سردية نُفّذت بدقّة مذهلة وبلا رحمة عبر مختلف أدوات التعبير الثقافي والفني والإعلامي، إلى درجة اعتبار أيّ تشكيك بها ضرباً من ضروب الخيانة أو العداء للساميّة بحسب ديانة المُشكك.

لذا، فإن مسألة إنجاز قراءة متوازنة لتاريخ فلسطين المعاصر، تبدو مهمة مستحيلة في ظل صلابة السرديّة الصهيونيّة التي أصبحت - بحكم انتماء إسرائيل الموضوعي إلى الإمبرياليّة الغربيّة وسيطرة يهود على مفاصل أدوات الإعلام العالمي - السرديّة المعتمدة في معظم أنحاء العالم مقابل سرديّة فلسطينيّة خافتة وملتبسة ومشتتة وخطابيّة تكاد من هزالها تكرّس السرديّة الصهيونيّة أكثر من أن تناقضها. أما سرديّات الدول العربيّة المجاورة للكيان الإستيطاني عن تاريخ المنطقة - لكثرة ما فيها من دجل وتلفيق وانتقائيّة بالغة - فهي غير موثوقة من حيث المبدأ كي تعتبر مصادر يعتمد عليها لفهم أفضل لتاريخ التجربة الصهيونيّة.

لذلك كلّه، يصعب فعلاً بناء نص تأريخي شامل بشأن فلسطين منذ 1882 لغاية اليوم، حتى من خلال المفاضلة الجدليّة بين السرديات المتقاطعة إسرائيلياً وفلسطينياً وعربياً. ذلك أنّ الإطار العام الجامع أكاديميّاً وإعلاميّاً، تَبنّى رواية المنتصرين مهما تباين التوازن بين هذه السرديات في اللحظات التاريخيّة المتعاقبة. وهكذا، فإن السّرديّة الغالبة هي أن اليهود الذين هم بداية ديانات التّوحيد، وطردهم الرومان من فلسطين فتناثروا عبر الجغرافيا، عادوا إلى مسرح العالم من جديد. إذ تقاذفتهم البورجوازيّات الأوروبيّة المتصارعة واضطهدتهم في العصر الحديث، فتعاهدت طليعة متنورة منهم على استعادة مجد أجدادهم المزعوم بالعودة إلى فلسطين المهملة والمهجورة، وتحويلها إلى جنة خضراء ونموذج تحديثي ديموقراطي متقدّم للحضارة الغربيّة بين سكان محليين تغلب عليهم البداوة ومفتقرين لأي حسّ قومي أو حتى لوحدة عرقيّة. بالتالي، فإن عداء بعضهم للمشروع الاستيطاني الصهيوني تسبّب فيه تخلّفهم الذاتي أو تبعيتهم لدول يحكمها طغاة عرب معادون للساميّة... لتكون لحظة ولادة الدولة العبريّة وفق تلك السرديّة دائماً، بمثابة معجزة إلهيّة انتصر فيها اليهود - وهم قلة قليلة - على جيوش خمس دول عربيّة معها متطوعون معادون للساميّة من دول أخرى وكذلك على بريطانيا التي حاولت تأخير حدوث المعجزة.

نافذة الأمل لبناء تصور أقرب إلى الحقيقة بشأن فلسطين يكسر هذه السرديّة السوداء الملفقة، فُتحت في ثمانينيات القرن الماضي ليس من جهة الضحايا الفلسطينيين أو حتى من الجانب العربي، وإنما على يد مجموعة من الباحثين الإسرائيليين الشباب الذين تأثروا بتطور مناهج دراسة التاريخ في الغرب، ولا سيّما بعد تسرّب المنهجيات النقديّة الماركسيّة إلى قلب التيار الرئيس للعمل الأكاديمي في جامعات بريطانيّة وأميركيّة كبرى. هؤلاء الباحثون الشّبان أصبحوا يعرفون بالمؤرخين الجدد. مستعينين بوثائق أرشيف إسرائيلي

> الإسرائيلي الملتبس الهوية يعلم جيداً معنى أنّ «امتلاك السرديّة هو أساس كل شيء»

أساساً، شرع هؤلاء في إعادة قراءة الحدث الاستيطاني الصهيوني في مفاصله المختلفة، ومحاولة تفكيك السرديّة الرسميّة الغالبة من خلال تحليل معمق لأعمدتها الأساسيّة. وعلى الرغم من أن أعمال المؤرخين هؤلاء بقيت دون مستوى تقديم سرديّة نقيضة متكاملة لتلك التي تروجها الصهيونيّة، إلا أنها نجحت بالفعل في كسر قدسيّة تلك السرديّة المصمتة وفتحت فيها شقوقاً بات يمكن الإطلال منها على حقائق مغايرة لكثير مما تحاول الصهيونيّة ترويجه، وكشفت عن البنية الحقيقيّة للمشروع الصهيوني في المنطقة: مشروع استيطاني عنصري غربي سافر، يماثل مشاريع الاستيطان الغربيّة الأخرى في العالم كما الولايات المتحدة أو أوستراليا، حيث مجموعة أوروبيّة بيضاء البشرة تستوطن أرضاً بعيدة عن بلادها الأصليّة وتقيم دولتها اليوتوبيّة عبر الإلغاء التام للسكان المحليين من خلال مشاريع إبادة وتطهير عرقي وتهميش طويلة المدى. ولا يمثّل الدين في هذا المشروع سوى أيديولوجيا رسميّة توظّف في خدمة الإستيطان.

خطورة هذا التصّور الكلّي عن فكرة الكيان العبري (يسميه إيلان بابيه «برادايم» الاستيطان الكولونيالي) أنّه يجعل موضوعات مثل الإحتلال وعمليّة السلام وحلّ الدولتين والديموقراطية الإسرائيلية، مجرّد كلمات مفرغة من المضمون لا معنى حقيقياً لها. وتلك مسألة خطيرة ليس من مصلحة أحد اتساع تداوله في الفضاء العام، سواء من جهة النخبة الإسرائيليّة المهيمنة أو جهة الأنظمة العربيّة الخاضعة للنفوذ الأميركي أو حتى من طرف اليمين الفلسطيني الذي سلّمته إسرائيل شؤون من تبقى من الفلسطينيين في أرضهم. ولذلك، فإن تولّي اليمين الإسرائيلي الفاشي النزعة إدارة الدولة العبريّة منذ 2001 إلى وقتنا الرّاهن، دفع بالمجتمع الإسرائيلي إلى السقوط من جديد في ظلام مركزيّة السرديّة الصهيونيّة التّقليديّة، في الوقت الذي تبعثر فيه المؤرخون الجدد بين المؤسسات الأكاديميّة الغربيّة وخفت تأثيرهم داخل «إسرائيل» ذاتها.

استعادة السرديّة الصهيونيّة إلى الواجهة من جديد، لم يعد مقتصراً على نطاقات الصحافة والأكاديميا والإعلام التقليدي، بل تمددت اليوم إلى قطاعات ذات تأثير أوسع بما لا يقاس على الرأي العام العالمي عبر أدوات السينما والأفلام الوثائقيّة وحتى المسلسلات الدراميّة. ولا تكاد تخلو منصة عرض واسعة التأثير من عمل جديد يروي جانباً من الحكاية المزعومة. هذا ما نراه في إقدام قناة «العربيّة»، على عرض نسخة مترجمة من وثائقي «بعد الإبادة» (عرضته القناة تحت اسم «النكبة»!) الذي أعده صانعا أفلام صهاينة (ويليام كاريل وبلانش فنغر - راجع مقال الزميلة زينب حاوي في مكان آخر من الصفحة) معروفان بولائهما الاستثنائي لإسرائيل، ويروي سرديّة مجتزأة متوافقة تماماً مع السرديّة الرسميّة الصهيونيّة لتاريخ ولادة الكيان العبري. هذا الفعل ليس ناجماً عن سوء تقدير - معروف عن مجمل مسار العمل في المؤسسات الملكيّة - بقدر ما هو انحياز واضح وانخراط صريح في ترويج «البرادايم» الصهيوني بين الجمهور العربي الذي لا يمتلك أدوات النقد أو حتى سرديّة بديلة ذات قيمة يعتمد عليها لمناهضة أسفار التلفيق الصهيوني.

هذا الانحياز المتعمد للسردية الصهيونية من قبل أعتى أدوات آل سعود الإعلاميّة المرئيّة، جزء من حملة تشويه وعي منظّمة بدقّة يشنها المشروع الأميركي إنطلاقاً من مستعمراته في الخليج تمهيداً لإنطلاق مئة عام جديدة من التطبيع العلني العربي مع المشروع الصهيوني بعد المئة عام الأولى المغلفة بجدار من السريّة توافق عليه جميع الأطراف. رغم كل التمويه، باتت هذه الحملة مكشوفة، سلاحها الأفعل المثقفون «المثقوبون» والقنوات الإعلاميّة الموجهة. القائمون على «العربيّة» لا يعلمون غالباً خطورة ما ارتكبوا، لكنهم اكتفوا بتنفيذ تعليمات وردت إليهم من القدس المحتلة، حيث الإسرائيلي الملتبس الهويّة يعلم أكثر من غيره معنى أنّ «إمتلاك السرديّة هو أساس كل شيء»، وأن جهداً منظّماً يستهدف كسر العداء الفطري لفقراء المنطقة ضد مشروع الإستيطان الغربي في فلسطين، قد يبدأ بفيلم وثائقي من الدرجة الثالثة.

خالد حجازي